المحاضرة الأولى: الشعر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا

مراجع المحاضرة:

- الجاحظ: الحيوان.
- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي
- عفيف عبد الرحمن: الشعر الجاهلي حصاد قرن.
- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي. العصر الجاهلي.
- يحي الجبوري: الشعر الجاهلي . خصائصه وفنونه.
- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم.
- سعاد ترشاق: محاضرات في النص الأدبي القديم.

الإطار الجغرافي والثقافي للشعر العربي القديم:

موطن العرب في جاهليتهم شبه الجزيرة العربية ، وهي البلاد الواقعة في أقصى الجنوب الغربي من القارة الآسيوية ، والتي يحدها من الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب خليج عدن والمحيط الهندي، ومن الشرق الخليج العربي، ويحدها من الشرق والغرب والجنوب سلسلة جبال بركانية، كما تتوفر على سهول وسواحل تختلف من حيث الاتساع والضيق ، وبها هضبة داخلية تسمى الربع الخالي والنفوذ الكبرى والدهناء ونجد.

وقد امتدت شبه جزيرة العرب في رقعة من الأرض واسعة، ذات بقاع متباينة، تختلف بيئاتها الطبيعية اختلافا يكاد يجعل منها مواطن متعددة. وكان لا بد لهذه البلاد المترامية الأطراف من أن يختلف مناخها، كما اختلفت طبيعة أرضها. و طبيعة النشاطات التي مارسها العرب ، كنشاط الزراعة، وحرفة الصيد والغزو، وكذا نشاط الزراعة.

المعنى الصحيح لكلمة الجاهلية: كلمة جاهلية التي أطلقت على هذا العصر لا تعني الجهل، وانعدام العلم.إنما تعني السفه والغضب. وقد ذكرت هذه اللفظة في القرآن الكريم، ودلت على الحمية ، والطيش، والغضب. قال تعالى في سورة البقرة: قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .

وقال تعالى: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين.

وقال أيضا: وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

وفي الحديث النبوي الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأبي ذر وقد عير رجلا بأمه: إنك امرؤ فيك جاهلية

ويقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

واضح أن الكلمة دلت على معاني السفه، والطيش، والحمق، والحمية، والأخذ بالتأر .

وقد أجاد العرب بعض العلوم، إذ كانوا على دراية بالنجوم ومواقعها، والرياح ومهابها، فجاءت لغتهم غنية بأسماء المطر، والسحاب، والرياح، وألفوا كتبا كثيرة في ذلك. كما ظهرت لديهم ملامح لعلم الطب والبيطرة ، وإن خالطت الخرافة بعض علومهم. وكان لهم علم واسع بالتاريخ والأخبار والأيام والأنساب التي برعوا فيها .

تاريخ الشعر الجاهلي: إن ما وصلنا من شعر جاهلي، لا يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ،كما أنه لا يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده.

لهذا، يعد القرآن الكريم أول مصدر موثوق يمكن من خلاله الاطلاع على تلك الحضارات الغابرة ،كما يمكننا من معرفة الجانب الفكري والثقافي والتاريخي ...لتلك الحضارات المتعاقبة على شبه جزيرة العرب .

كما تعد النقوش والآثار – التي اكتشف بعضها في اليمن حيث قامت دولة معين وسبأ وحمير، وفي الحجر حيث وجدت لحيان وثمود، وفي بترا حيث قامت دولة الأنباط– مصدرا آخر من مصادر التأريخ لحضارات شبه الجزيرة العربية.

وقد أشار كثير من المعنيين بالدراسات الشرقية من الأوروبيين إلى هذه الحضارة العربية القديمة بعد استنطاق النقوش والآثار.

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الجاهلي الأخير ، نجد أن تلك الحضارات العربية القديمة قد اندثرت منذ أزمان متفاوتة.

وما جاء من ذكر تلك الحضارات في القرآن الكريم كثير. فقد ذكر القرآن ما كان عليه عرب الجاهلية الأولى من نعيم وترف، وقوة ومنعة ، إذ وصف سبأ بالحياة الزراعية المستقرة الناعمة، وضربهم في الأرض آمنين في قوله تعالى: لقد كان لسبأ في مسكنكم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور.

وقوله أيضا: وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأيانا آمنين.

ويصف القرآن الكريم قوم عاد بفن العمارة والصناعة في قوله: أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون،

وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون.

ويصف ثمود بالحياة الزراعية المستقرة الخصبة، وبفن العمارة في قوله تعالى: أتتركون في ما ههنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل طلعها هضيم، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين.

كما خاطب القرآن الكريم عرب الجاهلية الأخيرة ، ودعاهم إلى الاعتبار بأسلافهم ، وفيه أيضا تأنيب لهم ، إذ كانوا يسيرون في الأرض، ويمرون بآثار منازل هؤلاء الأسلاف الأقدمين، ويعلمون من أمرهم ما يعلمون، ولكنهم مع ذلك لا يتعظون.قال تعالى: أولم

يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق.

وتعد هذه دلائل كافية على تلك الحضارات التي استوطنت شبه الجزيرة العربية. إلا أن الحديث عن الشعر الجاهلي حديث متقدم ، نخص به العصر الجاهلي الأخير . والباحثون في الأدب الجاهلي ، يحددونه بحوالي قرن ونصف قبل البعثة المحمدية، وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية خصائصها، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي، وقد لاحظ الجاحظ ذلك إذ يقول: أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه؛ امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة...فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له- إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام .

إذن، ما ندرسه من شعر لا يمثل تاريخ العرب في جزيرتهم، إنما يمثل تلك المدة المحددة بمائة عام ونصف، أو مائتي عام قبل الإسلام.

خصائص الشعر الجاهلي:

1- **الطابع البدوي:** صور ومعاني الشعر الجاهلي صحراوية بدوية، تعبر عن حياة الصحراء مناخا ونباتا وحياة ومعيشة، فجاءت تشبيهات ومجازات واستعارات الشاعر الجاهلي أصداء للبيئة ، وصورا لها. لهذا كثر الحديث عن الطلل، والرحلة، والخيام، والإبل، والبقر، والوحش، والفرس...والنباتات الصحراوية....

ولكن بدوية الشعر الجاهلي ومغالاته في وصف الطبيعة، جعلت منه شعرا بسيطا من ناحية الخيال، وهذا ما أقره حنا الفاخوري في قوله: " الجاهلي – إلى ذلك كله – ضيق نطاق الخيال والتخيل بسبب اشتداد المحسوس عنده وسيطرة المادية على مجمل كيانه. وهو بعيد عن الاستقرار الذي يفسح المجال للتأمل الطويل العميق. ومن ثم تراه يعمد إلى الصور القريبة التي تتعقب المحسوس في جزئياته. "

2- **الوضوح والصدق:** الشعر الجاهلي يعبر عن الإنسان في أبسط انفعالاته وأصدقها، وقد كانت خاصيتا الوضوح والصدق بارزتان في الشعر الجاهلي نتيجة ظروف العيش البسيطة التي لا تعقيد يحكم علاقات الأفراد فيها، ولا قوانين ووسائل عيش معقدة تنعكس على التفكير والعقل. لذلك تمكنوا من نقل الأحداث والحديث عن الأيام والأماكن والأشخاص بواقعية وبمسمياتها دون مبالغة ، أو خيال جارف يعمي الحقيقة ويبهمها .

3- **دقة التعبير وحسن التصوير:** كثير من الشعر الجاهلي عبارة عن لوحات كاملة دقيقة التفاصيل، وفي الشعر الجاهلي مقاطع كثيرة تعكس دقة التعبير؛ منها مقطع الطلل، ووصف الرحلة والحيوان، ووصف الصعاليك لغاراتهم وحياتهم في الجبال، ومعاركهم ضد الموت والجوع والفقر...